

ملاحق الخليج < ملحق الخليج الثقافي >

مضى عقد من الزمان على رحيله

رشيد وهبي آخر الانطباعيين اللبنانيين

المصدر : (عمران القيسي)

تاريخ النشر: 07/06/2008

لأستاذ الفلسفة في كلية الآداب في جامعة القاهرة الدكتور مصطفى النشار رأي في منتهى الأهمية والحضور، نشره أو قدمه في أعمال الندوة الفلسفية الثانية عشرة التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية في جامعة القاهرة عام 2000 يقول فيه: إن طبيعة أي عمل إبداعي أو علمي، أنه جهد مبذول يحتاج لتقويم سليم موضوعي، وإصرارنا على هذه الموضوعية هو ما سيجعل الأعمال الرثة تتوارى ولا يقدم عليها أصحابها هو ما سيثبت الأمل في عقل المبدع الجاد بحيث يبذل غاية جهده وهو واثق من أنه بقدر ما بذل من جهد وبقدر ما أنفق من وقت في تأمل عمله وتجويدته فإنه سيلقى التقدير من النقاد ومن القراء على حد سواء.

إذن نحن حيال أعمال إبداعية هي جهد حياة فنان مصور لبناني درس الرسم والتصوير على أيدي أساتذة الرسم الذين عاصرهم أمثال حبيب سرور الفنان اللبناني الرائد، كما درس الفن في مصر على أيدي كبار الرسامين أيضاً وبصيغة مباشرة أننا نتحدث عن الفنان البيروتي رشيد وهبي المولود سنة 1917 والمتوفى أواخر القرن العشرين.

لكننا بدقة أكثر ندرس الآن لوحة المنظر عند هذا الفنان الذي طالما وصفه النقاد اللبنانيون بآخر الانطباعيين اللبنانيين، فيما رآه البعض الآخر مزيجاً من الأكاديمية والتسجيلية والانطباعية وإلى حد ما الصيغة العامة المباشرة للتعبيرية.

رسام مناظر ومبدع صور شخصية بورتريت، وتقني نادر في التلوين، لكنه أيضاً أحد المداميك الأساسية في مدرسة بيروت الفنية التي خلدت ذاكرة هذه المدينة وروح المكان المختلفة فيها. صاحب لغة إنشائية تصويرية من نمط يحمل خصوصية الكائن البيروتي المرتبط وجدانياً ونفسياً بكل منعطفات المدينة، وجمالها السري الدفين الذي يعتقد الفنان أو المثقف البيروتي أنه الوحيد الذي يمتلك مفاتيح أسرارها.

يدل كل هذا الوصف الإنشائي لنوايا وبواطن الفنان الذي مضى عقد من الزمان على رحيله، دعونا نذهب إلى طبيعة نظرتة إلى المنظر اللبناني أو البيروتي، إلى تجليات حالة الرسم والتلوين عنده انطلاقاً من إيمانه أو قناعاته الحقيقية لا الوهمية.

يقف الفنان رشيد وهبي فوق جدار حاد ومرتفع يطل منه على جانبي معضلة طالما اندفعت باتجاهه كأسئلة يصعب الإجابة عنها قبل انجاز المشروع الفني، فهو يسأل نفسه عن إمكانية إقامة علاقة بين هذا الموضوع الذي سيرسمه وهو في الغالب موضوع رمزي، أو تصويري أكاديمي بهيئة صورة إنسية، أو رسم منظر لطبيعة تبدو مستقلة بكل كينونتها وتفصيلها عن الفنان ومخيلته وبين روح العصر الفني الذي يعايشه ويحف به من جميع جوانبه.

لذلك يبحث في بعض الجوانب القابلة للتأويل، فالمرأة المتأمل على حافة الغابة وهي ترتدي ثوبها الأبيض هي بجعة تستريح، وهنا سيحاول الفنان أن يحيل العمل الفني بفعل العنوان وإنشائيته إلى ارتباط مضموني بموضوع يصلح أصلاً لتكرسه لوحة كلاسيكية أو مقطوعة موسيقية، أو رقصة من رقصات الباليه، لكن اللوحة في جوهرها كتأليف زيتي يرتكز على المعطيات العقلانية الأكاديمية سوف يفصح عن دلالاته المباشرة فحسب.

والشيء ذاته عندما يرسم صورة فتاة تنظر جانبياً ويمنحها عبر العنوان حالة عتاب، وهي التسمية المرفقة بالعمل الفني، هنا أيضاً ستبدو الروح البلاغية أو النص البلاغي المرفق بمثابة القوة الموضحة لحقيقة العمل الفني.

إن العنوان في اللوحة كان العنصر اللاحق للتأليف وليس العنصر السابق له كما يعتقد البعض، فالرسام كان يرسم ويفسر على ضوء النتائج، وهنا يصير الرسم تقنية صرفة، ويصير الرسام مؤدياً لعملية الرسم. لكن هل قامت العلاقة التي سأل عنها الفنان المحلي البيروتي البارع بين ما رسمه وأنجزه وبين التيارات الحدائوية التي تحيط به؟.. الجواب يتقبل الفني كما يتقبل الإيجاب.

فلوحة رشيد وهبي الحسية هي امتثال نفسي ووجداني لما في الخارج الذي يعايشه ويشعر أنه الممثل الشرعي والوحيد له. لذلك تحمل هذه اللوحة خصوصيتها الفريدة، وبمعنى أدق إنها لوحة من طراز خاص، تكمن خارج وداخل المعاصرة بمفهومها الفكري لا الانفعالي، ذلك ان هذا المفهوم الفكري الواسع بأخذنا أصلاً إلى المدى الذي نوه به وبأمثاله الفيلسوف المصري الدكتور مصطفى النشار، حين قال: بأنه الجهد المبذول الذي يحتاج إلى تقويم سليم وموضوعي أي أنه لا بد وأن يدرس من قبل النقاد من منظار آخر غير المنظار البسيط الذي أوله أو أحاله إليه الفنان صانع العمل، لأن الطاقة التفسيرية لدى الفنان قد تأتي في كثير من الأحيان اعجز من حقيقة العمل الإبداعي في صيغته النهائية.

نقف أمام إحدى زينيات الفنان رشيد وهبي وهي زيتية بحجم 52*67 سنتيمتراً وهي صورة بورتريت لسمعان الضيعة.. رجل قروي يحمل ملامح رجولية لبنانية مميزة بلباس الرأس والملابس والشوارب والنظرة الثابتة.

هذا الموضوع الذي هو رصد وجداني للخارج، والذي يستطيع الفنان المعاييش والمراقب وحده أن يصل إلى صياغته سوف يدفعنا لأن نرى في رشيد وهبي حالة نقدية، بل عيناً تذهب إلى أعماق نقطة في بحر العلاقات الاجتماعية والإنسانية في مجتمع الضيعة اللبنانية. إنها تماماً كالذهاب نحو قلب الوادي عنوان لوحة زيتية بحجم 65*70 سنتيمتراً إذ سيحاول أن يكشف عن سكون جياش، سكون يمتلك طاقة تحريك كل ما هو في أعالي الجبال من أجل إبراز سكونيته الدفينة، فيما الألوان التي يدفنها في تلك الأفياء الباردة سوف تشي بقدر هائل من البرودة.

غريبة علاقة هذا الرسام اللبناني بالذات، مع المرأة التي يرسمها، إنها ليست ذاتاً انثوية بل موضوعاً انثوياً، فهي المرأة الشاعرة، والمرأة القطة، والمرأة المستحمة غير العارية.

هذا الخفر البيروتي الذي كان يسحبه رشيد وهبي على موضوعاته الفنية، هو الذي أكسبه حالة مميزة أو بعيدة إلى حد كبير عن رعييل الانطباعيين اللبنانيين، عمر الأنسي، قيصر الجميل، مصطفى فروخ، إذ لكل منهم موديله المعروف بالاسم لدى الوسط الفني مثل الموديل مريم التي رسمها كثيراً قيصر الجميل.

إن شخصية رشيد وهبي التي هي النقطة المحاطة باضلاع مثلث قوامه، البراعة والعقلانية والتوحد مع الذات هي التي جعلت من فنه صياغة أخرى تختلف تفصيلاً عن الفن الذي جايه.

فقد كان فناً آخر له خصوصياته التقنية والموضوعية والتعبيرية، فعلى المستوى التقني كان يعرف بشكل فذ أسرار الطبشور الملون الفيزان حيث لمسافة الرقيقة ودقته التلوينية تحيل المساحة التصويرية الملونة بالألوان الطبشورية الملونة إلى حالة شغف نادرة، وكذلك مقدرته بالرسم بالزيت إذا أن باليتته أو ملوانته التي كانت تركز على الألوان الأساسية، ستبدو خلال الخلط اللوني قماشاً جسدية مثيرة.

الغريب بالنسبة للألوان المائية سواء أكانت غواشية أو اكريلكية فإن رشيد وهبي رآها مادة جيدة لروحته التجريدية الخاصة. ولم يسبق لهذا الفنان أن عرض هذه اللوحات التجريدية التي أسماها مجموعة أصوات، كالسوناتا، وأرض القمر، والطوفان، في أي معرض شخصي أو عام، بل إن الذين اطلعوا عليها من المقربين كانوا قلة نادرة.

إن من أهم مواصفات لوحة الراحل رشيد وهبي، أنها كانت نتاج محترفه الخاص، وحاملة بصماته وأفكاره التي يؤمن بها ويتمسك كلياً بأخلاقيتها، لذلك فهي مجموعة قيم تعبيرية تعامل الفنان عبرها مع حرفة مارسها بتأدب الممتحن للإبداع والذي يحترم ابداعه وبراعته، لهذا قال عنه صديقه الفنان والناقد المرحوم رضوان الشهال: إن لوحة رشيد وهبي كانت مفهوماً شخصياً نشأ وتكوّن في دماغ صاحبه، وهي أيضاً لوحة متكاملة ذات بنية واحدة وتماسكة.

هذه هي الحقيقة الأخلاقية والإبداعية للراحل رشيد وهبي فكرة الإنجاز المنجز، العمل الذي لا ينتهي على نقصان. لذلك كان المنظر كما يراه كمالاً ربابياً. تقدمه الطبيعة لكي نؤمن بقدره خالقها. وفي الثمانينات وفي حوار مباشر معه قلت له إنني أتحدث عن عمل تقني تشكيلي تتقدم فيه الصنعة على المحتوى الإيمائي، ففلس أمامي مجموعة كبيرة من الأعمال الرسوم- المنفذة بالحبر الصيني لحركات جسدية، ومناظر ميتورة وقال انها تشبه الأحلام الليلية حين تركض ولا تصل إلى مكانك.

أما مسألة الإرهاف والحساسية، فإن رشيد وهبي الذي كان في صباه عازفاً على الكمان، ومولعاً بالنغم بقي يرسم وهو يصر على إيصال ألوانه إلى ذلك المستوى السماعي الهارموني الذي يفصح داخله، إنه الصوت القادم من صلب اللون في اللوحة، ويكفي أنني أسمع حين أنظر إلى عملي.

فنان من الحديثة الخالدة بيروت.. واحد من سنديانات هذه المدينة التي ما برحت وستبقى تتكئ على الجبل وتمد رجلها في البحر المتوسط.

سيرة رشيد وهبي

من مواليد بيروت سنة 1917

درس في المقاصد ببيروت، ثم تعلم أصول الرسم على يد الفنان اللبناني حبيب سرور

درس في كلية الفنون في القاهرة وتخرج سنة 1945

درس لمدة سنتين النقد والبحوث في القاهرة
منذ عام 1931 بدأ يشارك بالمعارض خارج وداخل لبنان
واحد من مؤسسي جمعية الفنانين اللبنانيين
أستاذ الفن في الجامعات ومعهد الفنون منذ العام 1947
حائز على وسام المعارف وجائزة الدولة التقديرية
- توفي أواخر القرن العشرين

—